زمن الحكاية وزمن النص في تغريبة بني هلال

الأستاذة: بريكة بومادة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار– عنابة

ملخص

عبـــّرت تغريبة بني هلال عن موضوعات و قضـــايا حياتيـــة ذات طابع وطني جمعي من ناحية و إنساني من ناحية أخرى. عن طريق توظيف عناصر فنية و إنسانية تلبي حاجات الفرد و الجماعة على السواء.

و قد كانت التغريبة نقلة جماعية للقبيلة الهلالية من نجد التي أجـــدبت وصارت أطلالا إلى أرض المغرب أرض الحلم التي تهون في ســـبيلها كـــل العراقيل الفضائية و الزمانية من أجل الوصول إليها.

و لذلك فإن توظيف الراوي الشعبي لتقنية الزمن كان توظيفا ذكيا و ناجحـــا، عبر عن تتقنيتين زمنيتين هما تقنية الأسبق و تقنية الارتداد حتى يتمكن مـــن التعبير عن الأحداث و الوقائع و يعبر عنها بكل حرية و طلاقـــة، فـــالراوي أمام نص منفتح زمانيا حيث يتغير باستمرار تبعا لمتطلبات البنيـــة النصـــية الداخلية و تبعا لمتطلبات المتلقي.

و لذلك كان لزاما علينا في مثل هذا النص التراثي أن ندرس زمـــن الـــنص وأن نكشف على العلاقة المتلازمة بين زمن الإنتاج و زمن التلقـــي دون أن نغفل الحديث عن دلالة العنوان زمانيا باعتبار أن عنوان النص " تغريبة بني هلال " له من الدلالات الزمانية ما يجعل نص التغريبة أكثر ثراء و انفتاحا.

تمهيـــد:

إذا كان المكان عنصرا مهما في العملية السردية، فإن الزمان هو عمدة القصة وعَصَبُ نظمه، والسيرة الشعبية باعتبارها فنّا قصصيا فإن عمادها المكان الذي يُعتمد عليه في عملية الوصف التي تحتل مساحة كبيرة في السيرة، والزمن هو عماد السرد وأساسه.

فالمكان والزمان هما إطاران للأحداث، رغم أنّ بعض الدارسين يميلون إلى أنّ التحديدات الزمنية أهم بكثير من التحديدات المكانية، ذلك أنه بإمكان الراوي أن يقص على مسامعنا دون أن يجهد نفسه في تعيين المكان الذي تحدث فيه، بينما لا يمكن مهما اجتهد أن يتملص من تقديم بعض التحديدات الزمانية، مادام الراوي يسرد أحداثا وقعت في الزمن الحاضر أو الماضي أو المستقبل.

وبخصوص " تغريبة بنـــي هلال " فتحديد المكان لم يكن ذا أهمية كبيرة، ما عدا ذكر الراوي لمنطقة نجد، وتحديد أوصافها حين أجذبت، فتحدث عن مضارب القبيلة، وبعض أمكنتها " كانت بلاد نجد من أخصب بلاد العرب، كثيرة المياه والغدران والسهول"[1].

1- زمن الحكايـــة:

وحين تنطلق القبيلة في مسيرتها المظفرة بحثا عن فضاء آخر يكتفي الراوي بذكر أسماء الأماكن التي مرت بها بني هلال دون أن يتوقف لتقديم أوصاف هذه الأمكنة أو حدودها الجغرافية ذلك أنّ الأحداث التي تجري أهم من التوقف على هذه الأمكنة وبهذا يغلب السرد القصصي الذي يعتمد على الزمان، الذي يعطي للأحداث فيمتها، ويمنح للتغريبة حدودها الزمانية.

ورغم محاولات الراوي المتكررة لتحقيق الإطار الزماني للتغريبة إلا أنه يلتزم بزمن القصة التي يرويها، بل نجده يلاحق الأحداث المهمة ويعتني بها أشد العناية، حتى يغـــدو الزمن فضفاضا منفتحا، يعبر عن أحـــداث ماضية أو أحداث لاحقة، يتقدم بها إلى زمن لاحق أو يتأخر إلى زمن سابق دون أي عوائق أو حدود، إنما يمارس هذا التحليق فوق الزمن بكل حرية.

ولذلك نجد الراوي في " تغريبة بني هلال " حر في تصوير المشاهد السرديـــة، يعبر بطلاقـــة عن أزمنة متباينة دون حرج أو حاجـــز من زمن أو وقت، بحيث ينقلنا إلى فضاءات زمانية متعددة، وفي مساحات متقاربة، فنعيش اللحظات السردية بتفرعاتها الزمانية، وهذا لأن راوي السيرة لا يلتزم بتاريخية الزمان وواقعيته بقدر ما ينعتق من قيد الزمان ليعبر عن الأحداث التي تخدم تطلعاته وأهدافه، وتعمل على التكامل النفسي للشعب المتلقي لمجموع هذه السير الشعبية، وهذا كله حتى يخرجوا سيرهم في أحسن صورة ممكنة، إضافة إلى هذا فإنّ المتلقي لتغريبة بني هلال لا يهمه الزمان الحقيقي للحدث، بقدر ما يهمه المتعة وتحقيق الغاية الجمالية من خلال تتبع حركية الأبطال وتحركهم بكل حرية في الزمان والمكان.

فالراوي أمام سرد لأحداث حقيقية واقعية، فرحلة "بني هلال" هي مسيرة قبيلة من موطنها الأصلي بحثا عن موطن جديد، فلا خيار آخر أمامها، لأن البقاء معناه الموت والفناء، فالراوي وهو يسرد أحداث هذه التغريبة الكبرى يصور وبدقة أهم الوقائع والمعارك التي خاضتها القبيلة، وأهم الأحداث التي مرت على أبطال " بني هلال " كل هذا في قالب زمني متواتر، بحيث لا نحس أن هناك أي فجوة زمنية بين الأحداث، وكأن الراوي عايش المسيرة لحظة لحظة فهو يقف ويرويها بجميع جزئياتها المهمة وتفاصيلها الدقيقة، فجاءت التغريبة حصيلة معرفته بحقيقة الحكاية التي يردها ومزج هذه

المعرفة وهذا الاطلاع بملكة التخيل والافتراض التي يملكها، مما ساعده في خلق أجواء سردية حكائية مليئة بالخيال والمبالغة، اختلطت فيها الحقائق التاريخية بالملكة الحكائية، وتلاحمت المعلومات المثبتة بالمعلومات المضافة لتوسيع دائرة الحكاية التي يرويها، فالراوي حرّ في رسم معالم البطولة داخل تغريبة بني هلال، وفي رم المثال الذي ينبغي أن يكون عليه الفرد، والنموذج الإيجابي الذي ينبغي أن يكون عليه سلوك الجماعة تجاه أفرادها تحقيقا لوجودهم وتأكيدا لذواتهم التي يجب أن تتصارع أو تتناقض مع الجماعة، بل يجب عليها أن تتكامل، حتى يحقق الفرد ذاته المستقلة، وتحقق الجماعة أهدافها وغاياتها.

يتألف خطاب تغريبة بني هلال من مقطعين يدلان على معنى الوجود: الكينونة والولادة والزمن، وتتحدد العلاقة بينهما بعلاقة زمنية بحتة: فوجود المكان أو الفضاء التي تجري عليه الأحداث هو الماقبل، ووجود الزمان مرتبط بالولادة ومعناه أنه مرتبط بالما بعد. فتغريبية بني هلال تتخذ من الزمان والمكان موضوعاً مهماً من موضوعاتها، فلا قيمة للزمان الذي تجري في فضاءه الأحداث دون أمكنة تحتويها .

والزمان المعبّر عن داخل التغريبية هو زمن خارجي ونعني به الفترة الزمنية التي حدثت فيه وقائع التغريبية كما ورد ذلك في كتب التاريخ، وزمن داخلـــي هو الزمن الذي تستغرقه القصة التـــي يرويها الراوي مختصـــراً أو مكبراً مساحة الحكي، بحيث يطول الزمن أحياناً ويقصر أخرى بحسب متطلبات الحدث الروائي، أو حسب حاجة الراوي الذي يؤثر بشكل كبير في تحديد هوية الزمن ومدته، فإذا كان الراوي ثرثاراً استغرق حديثه زمناً أطول، أما إذا كان الراوي صاحب حديث مقتضب قصير يذهب مباشرة للهدف لم تستغرق أحداثه زمانياً مدة طويلة.

ولعل ما يميز السيرة الشعبية عن غيرها من المرويات أنها تتبع لحياة شخصية أو عدة شخصيات، ومعنى هذا أن زمان القصة فيها يتحدد بميلاد الخصية الرئيسة أو المحورية ثم موتها، وبين لحظة الميلاد ولحظة الوفاة فإن الراوي يرصد مختلف اللحظات والأفعال الزمنية من حياة الفاعل الرئيسي، مركزاً في ذلك على أفعاله وأقواله ومختلف أعماله وهي تجري في الزمان، وبما أن السيرة هي إمبراطورية الشخصيات فإن الراوي أمام عدد هائل من الفواعل الأخرى التي عليه أن يرصد مختلف تحركاتها وأفعالها وما مدى علاقتها بالفاعل المركزي، كل هذا في حيز زماني معين هو زمن خطاب الحكي.

ولابد هنا من الإشارة إلى أن زمان الخطاب هو زمان قائم بالدرجة الأولى داخل التغريبية على أساس الترتيب حيث تبدأ التغريبية بالحديث عن حياة القبيلة فوق أرضهم نجد ثم ما وقع لهم من جدب ومجاعة ، ثم يصل بنا إلى رحلة الوفد الاستطلاعي الذي يأخذ الراوي في سرد تفصيلاته الزمانية بدقة، ذلك أن الزمن له قيمته الكبيرة بالنسبة لقبيلة تعاني من الجوع وتنتظر شبح الفناء الذي أصبح يطاردها في كل ركن من أركان القبيلة.

وفور عودة أبو زيد الهلالي تبدأ قبيلة بني هلال في رحلتها الزمانية التي تفنن الراوي في رصد مختلف أطوارها مستخدما تقنيات فنية منها الاسترجاع، والاستباق ذلك أن راوي التغريبة يحاول جاهداً ملء كل الفراغات والحديث عن كل اللحظات، وسرد أحوال كل الشخصيات بل إنه يغوص أحياناً في أعماق الشخصية فيسبر أغوار نفسها ويعطيها طريقة تفكيرها وقراراتها بل أحياناً حتى أحلامها الحميمة يشرحها ويقدمها ويجعل منها إطاراً لحدث جديد وينوه بفعل حكائي قادم، وأحياناً تساق حكي الراوي ووراء استباقاته واسترجاعاته حتى ننسى القصة الأصل.

ومن أهم المؤشرات الزمانية الحكائية نجد الراوي في التغريبية يقول مثلاً:
" هذا ما كان من سعدة وابن عمها العلام، وأما ما كان من البطل الهمام والأسد الدرغام أبوزيد "[2].

إن هذه الصيغة التي تكررت كثيراً في التغريبة توقف الحكي، وتنقلنا إلى الحكي المفارق الذي يمكن أن يستغرق مدة زمنية طويلة، وهذا ما فعله الراوي في تغريبة بني هلال فقد أوقف الحديث عن سعدة ابنة الزناتي خليفة واستأنف الحديث عن أبي زيد الهلالي وهو شخصية محورية رئيسة يهم القارئ كثيراً تتبع مختلف تحركاتها ومغامراته الكثيرة.

وقبل التفريق بين زمن الحكاية وزمن النص، نعرف الحكاية بأنها " كلمة تدل على المنطوق السردى، أي الخطاب الشفوي أو المكتوب الذي يضطلع برواية حدث أو سلسلة من الأحداث "[3].

كما أن الحكاية كما ورد عند " جيرار جنيت " هي سلسة الأحداث الحقيقية أو التخيلية، ومعناه هي مجموع الوقائع التي ترد متسلسلة في التغريبة بني هلال سواء تعلقت بالتاريخ والواقع أو لامست الخيال واللاواقع.

فتغريبة بنـــي هلال هي حكاية حقيقيـــة وقعت في إطـــار زمانـــي محدد " فلا مجال للتساؤل هنا عن سيرة بني هلال وصلتها بالتاريخ فنحن نعدها وثيقة تاريخية لا تقل في الأهمية عن الروايات المـــدونة في أمهات الكتـــب، وليس يضيرها تنقلها بالروايـــة الشفوية "[4].

وعلى الرغم من أنها ظلت تروى مشافهة، ولم ترق إلى مستوى الكتابة إلا في عصور قريبة، إلاّ أنها عبرت وبصدق من نفسها أولاً دون أن تقحم نفسها في الحديث عن بقية الأمم الأخرى، وهي وإن ذكرت غيرها فلمجرد الكلام عن علاقتها بهم ليس إلاّ، وقد " كانت صادقة في رسم الإطار العام

للعالم الإسلامي الذي اضطربت فيه، وهو العالم الذي شهد مجالات نشاطها منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والذي احتفظ بصورته الخاصة على الرغم من التغييرات السياسية التي تعرض لها "[5].

إذن فزمن الحكاية هو القرن الرابع الهجري، وهو فضاء زمني فضفاض ساهم في عرض مشاهد حكائية ارتبطت بهذا الزمن وتعلقت به، بالرغم من أن الراوي في تغريبية بني هلال لا يهمه التركيز على هذه التواريخ، بقدر ما يحرص وبوضوح تام على عرض قصة تغريبة قوم حددوا لأنفسهم هدفاً وغاية، فتظافرت جهودهم، وبدأ ورحلة كانت تبدو شبه مستحيلة بالنظر كذلك للعوائق التي تنتظرهم في طريق الرحلة.

ومع هذا فالراوي وظف في حكايته هذه الزمن الواقعي – التاريخـــي – الذي أشار إليه بواسطة اللغة التي استعملها والتي عبرت عن هذه الحقيقة الزمنية بالذات، فحين يتكلم الراوي عن الأمم التي مرت بها القبيلة وعن مواقعها الجغرافية وتسمية بعض الأماكن كلها إشارات زمنية محددة، فكما نعرف لكل فترة أماكنها ومسميتها. ويكفي فقط أن يقول الراوي " بنو هلال " حتى تحيلنا هذه اللفظة على فترة زمنية بعينها عاشت فيها هذه القبيلة، وعرفت أوج انتصاراتها وفتوحاتها، " فالزمن التاريخي يحيل القارئ على الفترة التي جرت فيها أحداث الحكاية، وهو زمن حقيقي واقعي يساهم مساهمة فعّالة في التدليل على تاريخية الحكاية المروية، ويجعل القارئ يحس بنوع من الحميمية التاريخية، وهو يسمع تفاصيل قصة قوم عاشوا حقيقة في التاريخ وخصوصاً أنهم أجداد لأغلب أبناء العرب "[6].

ورغم أن الراوي وهو يسرد قصة بني هلال لا يهمه الجانب التاريخي للسيرة، ولا توالي الأحـــداث زمانيا كما وردت في الوثائق التاريخية، بـــل

ما يهمه هو التعبير عن أمجاد الأقدمين وتجاربهم، وحتى إذا سألته عن سبب روايتها أجابك أن السبب هو ما فيها من حوادث تحث على الشجاعة والكرم ونيل الأخلاق، وجملة ما فيها من تجارب نافعة في كل شيء.

فتغريبة بني هلال ليست مجرد قصة للتاريخ أو تكرار لأحداثه ولكنها إنشاء التاريخ آخر، وخلق لأحداث جديدة، وتطوير متواصل للأحداث التي سبق وأن وقعت، وهي ولا شك إسقاط التطلعات وأماني نفسية على أفعال الشخصيات فهي تاريخ شعبي صاغ الراوي من خلاله مثله الأعلى في كل شيء.

ولهذا فإن الراوي الشعبي وهو سرد حوادث هذه القصة فإنه يمزج هذا الزمن الواقعي بزمن آخر لا يقل أهمية عن الزمن الأول وهو الزمن العجائبي الذي يفسح المجال للراوي حتى يفتح فضاءات حكائية متحررة من قيد زمن معين، إنما الراوي يصول ويجول. " يبدو لنا هذا الزمان العجائبي بوضوح من خلال بعض الشخصيات العجائبية وهي " تفعل أو " تعمل " بطريقة اختراقية للزمان المألوف أو الواقعي "[7].

فأبو بشارة العطار يمتلك سرعة خارقة يجعله يتصرف بالزمان بطريقة مخالفة تماما للطبيعة البشرية، فقد عرفناه في التغريبة ممثلا للسحر وللأعمال الخارقة التي كادت تقضي على بني هلال، حيث قام هذا الساحر بسبي أمراء بني هلال في قلعة صهيون، وكان يتحرك بكل حرية وطلاقة متحديا سيطرة الزمن.

كما جعل الأمير أبو زيد الهلالي في فترة زمنية قياسية يزور كل المناطق التونسية، حتى ينقل لقومه حقيقة هذا الوطن الجديد، ثم عاد إلى نجد في خمسين يوما، يختصرها الراوي في جملة واحدة، دون أن يتحدث عن

مخاطر الطريق التي تعرض لها أبو زيد الهلالي" وأما الأمير أبو زيد فإنه ما زال يجد المسير مدة خمسين يوما حتى أقبل إلى نجد "[8].

فالراوي حين يتحرر من ربقة الزمن يحرر آليا شخصياته داخل المسار السردي، بحيث يصبح للزمن معاني أخرى غير الواقعية والتاريخية، بقدر ما تلب معاني الخيال والمبالغة والعجائبية.

فالسيرة لها منطق زماني خاص، يظهر كذلك من خلال التداخل المعبر عنه بين زمان الحلم وزمان الواقع، إذ يجعل كل الأحلام تتحقق، إذ ترفعها جميعا إلى مصاف الرؤية التي تتحقق، فيخبرنا الراوي عن تأويلاتها وعن تحقق هذه الرؤى على مستوى الزمن الواقعي، ويكفي أن ندلل على ذلك الحلم الذي رأى الزناتي خليفة إذ شاهد " أنه أتته عربان مثل الجان ولهم سلطان كبير الشأن ومعهم العبد الذي أتى إلى عنده وراح وخلى رفاقه ورأى فارسا أقر اسمه على اسم الديب وقاضى العرب وقد ملكوا بلاده فقام من منامه طايش العقل "[9].

هذا الحلم الذي يصوغه الراوي فـــي الزمن الماقبل، يتحقق بحذافره في زمن المابعد حيث تحتل أرضه، ويقتل من طرف هذا الفار الأشقر الذي اسمه على اسم الديب وهو الأمير دياب ابن غانم.

فزمن الحكاية هو زمن متعدد الأبعاد حيث يسمح بوقوع أكثر من حدث في آن واحد، الأمر الذي ينشأ عنه ظهور تقنيتين زمنيتين هما تقنية الارتداد وتقنية الاستباق. فالراوي في تغريبة بني هلال يستعمل هذه التقنيات ويوظفها توظيفا جماليا، بحيث يروي لنا أحداثا كثيرة في مسافات زمنية متقاربة بحيث نحس ونحن نقرأ أو نستمع أنّ الأحداث وقعت في زمن واحد أو على الأقل في زمن لي ببعيد الواحد عن الآخر.

ومن ذلك مثلا أنّ الراوي في التغريبة يسرد قصة بداية رحلة الوفد الاستطلاعي المكون من أبو زيد والأمراء الثلاثة – يحي ومرعي ويونس– إلى أن وصلوا إلى الصعيد المصري وكان يحكمه الأمير الماضي بن مقرب وكان من أجود الناس، ثم يترك الراوي الأمراء، وهم يبدأون رحلتهم قاصدين بلاد المغرب تونس بالذات، ليعود إلى الوراء مستخدما تقنية سردية واضحة المعالم مسطرة الأهداف وهي تقنية الارتداد حيث يعود الراوي فيحملنا إلى العودة معه في رحلة زمانية حيث يتحدث عن جماعة من الشعراء العربان الذين قصدوا نجد ومدحوا الأمير حسن فأجزل عليهم في العطاء كما أحسنوا هم مدحه " واتفق الراوي أن جماعة من شعراء العربان كانوا قصدوا بلاد نجد ومدحوا الأمير حسن بن سرحان بالأشعار الحان كما جرت العادة في ذلك الزمان، فأجازهم بالعطايا الجميلة والمواهب الجزيلة وكان من جملتها جارية من بنات الحي تسمى مي"[10].

فالراوي لم يقطع زمان السرد وهو يروي عن مسيرة الأمير أبو زيد ورفاقه لضرورة فنية فقط، وإنما لضرورة حكائية تخدم سير أحداث التغريبة التي هو بصدد رواية فصولها المختلفة، فدخول شخصية هذه الجارية مي كان ضرورة لابدّ منها لمنح السيرورة السردية قيمتها، حيث أن هذه الجارية " مـــي" تقوم سعدة ابنة الزناتي خليفة بشرائها من شعراء العربان حين مروا بأرضها، وهذه الجارية هي من تخبر سعدة عن قبيلة بني هلال التي كانت تسكن عندهم وتخدم أمراءهم، وتخص بالذكر الأمير مرعي الذي من كثرة حديثها عن حسنه وبهائه وجماله جعلت سعدة تتعلق بحبه قبل أن تراه.

ولذلك يمنحنا الراوي تفسيرا منطقيا لدفاع سعدة عن أمراء بني هلال حين أراد والدها الزناتي خليفة قتلهم. وهذا التفسير هو حبها لمرعي الذي

رأت في ضرب الرمال أنه قادم فتهيأت للقاءه، وهي التي أغرمت به قبل أن تراه عينها من خلال ما قالته الجارية " مي " عنه حيث قالت:

لو تنظري يا ست مرعي بنظرة * فنظرة في مرعي تزيل المصايب
له وجه مثل البدر عند اكتمـــاله * وخدود تشبه ساطعات الكواكـــب
له خد أحمر والعيون نواعـــس * وكالسيف ماضي قفلة الحواجـــب
وطوله كعود الزان إن كان مايل * خلى نار قلبي تزيد لهايـــــــــب

ولهذا كانت تقنية الارتداد التي عادت بالزمن إلى الوراء حتى نتعرف على سعدة وهي منقذة أمراء بني هلال من الهلاك.

2- تقنيـــة الاستبـــاق:

أما عن تقنية الاستباق فهي المتمثلة تارة في الأحلام التي وظفها راوي تغريبة بني هلال ومنها حلم الزناتي خليفة، وحلم الفرمند وكلها أحلام تتحقق على أرض الواقع، حيث يحملنا الراوي إلى سباق مع الزمن فيهيئنا لأحداث قادمة وف يرويها لاحقا، فيبشر بحدوثها عن طريق الحلم الذي هو تقنية زمنية مهمة تهل على الراوي القفز على الزمن واستباق الأحداث، أما الطريقة الثانية التي استخدمها الراوي فهي ضرب الرمل وهو طريقة لمعرفة ما تخفيه الأيام من مفاجآت، وقد استعملها في التغريبة أبو زيد الهلالي لمعرفة مكان دياب حين كان في الأسر، واستعملتها كثيرا سعدة ابنة الزناتي خليفة والعلام ابن الزناتي الذي لجأ إلى ضرب الرمل لمعرفة موعد قدوم الجموع الهلالية، ويضطلع عل عدتهم وعتادهم.

3- زمـــن النـــص:

أما عن زمن النص فيتم فيه " الكشف عن مختلف الأزمنة وهي تتحقق من خلال علاقة الإنتاج والتلقي "[11].

فزمان النص يتعلق بزمان الإنتاج والتلقي ولذلك فإن البحث فيه يغدو بحثا به مستحيل، وذلك لأن السيرة الشعبية من أهم أركانها مجهولية المؤلف، الذي يظل غائبا دائما، ولذلك يطلق عليها جماعية التأليف ذلك لغياب المؤلف الواحد المحدد.

فالسيرة الشعبية رويت شفاها لمدة طويلة من الزمن بل إن هناك من الدارسين من يعيبون على جامعي السيرة كتابتها ونقلها من طورها الشفاهي إلى طورها الكتابي، لأن في رأيهم في ذلك تشويه للنص، ولقداسة المشافهة، التي يثقون فيها أكثر من ثقتهم في الجلود الميتة – الكتب، أو الكتابة عموما– وانتشار السيرة بالمشافهة جعلها ولاك في ذلك عرضة للزيادة والنقصان، شأنها في ذلك شأن كل المرويات الشفاهية التي تعتبر تراثا متفتحا قابلا دوما للزيادة والنقصان، بل إنّ هذه الأخيرة هي المسئولة عن ثرائه وبقائه حيّا مهما مرت السنوات والقرون ومهما تبدلت الأجيال. بل عن السيرة لا يمكن أن تعتبر أدبا شعبيا ما لم يكن " تداوله طليقا بمعنى أنّ كل متداول له يعيد تكوينه عند إعادة تقديمه بحيث يضيف إليه هموم عصره، وطموحات أبناء هذا العصر "[12].

فالمحتوى الشعبي الذي تزخر به السيرة الشعبية هو الذي يمنحها عطاءها الدائم والمستمر التجدد.

ولهذا فمبدع النص الشعبي " هو قارئه الذي يكون له في أعماقه صورة متجددة بما يحمل من زاد ثقافي، ومن التصاقه بالوجود الثقافي الشعبي، وبما له من قدرة على إعادة الإبداع والخلق والتصور الجديد "[13].

وأغلب المشتغلين بدراسة السيرة لا يعدونها نصا مكتملا إلا بعد طباعتها في كتاب بحيث تغدو نصا واحدا، في حين أن بعض السير الشعبية طبعت طبعات متعددة، وخرجت في نسخ متباينة، ومنها تغريبة بني هلال التي لم تصل إلى درجة الاكتمال – الانغلاق – وذلك لاختلاف النسخ التي ظهرت، وبالتالي نصبح أمام حكاية واحدة ونصوص مختلفة. ومن بين هذه النسخ التي بين أيدينا نجد:

1- تغريبية بني هلال " سيرة " تقديم ليلى قريش، سلسلة الأنيس، الجزائر، 1989

2- تغريبية بني هلال" ورحيلهم إلى بلاد المغرب، دار كرم بدمشق للطباعة والنشر، سوريا.

3- " سيرة بني هلال"، دار كرم بدمشق.

4- تغريبة بني هلال" ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة"، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.

5- تغريبة بني هلال " ورحيلهم إلى بلاد المغرب "قصة أبو زيد الهلالي كاملة، مؤسسة المعارف، بيروت. (أول تغريبة تضع اسم أبو زيد الهلالي على غلافها).

6- تغريبة بني هلال تقديم جمانة كعكي، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

7- فرائد اللآل في سيرة بني هلال، الدكتور رحاب عكاوي، دار الحرف العربي، الطبعة الأولى، 2005م، بيروت، لبنان.

8- سيرة العرب الهلالية الريادة البهية الأصيلة الكبرى، مكتبة الجمهورية العربية، مصر.

ورغم هذه الاختلافات الموجودة بين هذه النصوص المتوفرة، إلا أن تغريبة بني هلال ما زالت تُروى شفاها وبطرق مختلفة، بحيث تختلف الروايات باختلاف الرواة، وتتعدد بتعدد المتذوقين لهذا الفن القصصي السردي الجميل، الذي يحكي عن المثال والنموذج، ويروي قصص الانتصارات والهزائم والصراعات الكثيرة، وكله من أجل خدمة أغراض آنية معاصرة، فكل جيل ينتخب ما يراه خادما لمصالحه ملائما لتطلعاته، محققا لأمانيه وأحلامه.

فالسيرة الشعبية فن له خصائصه المميزة التي لا يشاركها فيها أحد من المرويات الشعبية الأخرى، مؤكد أنّ السيرة استفادت من الحكايات الخرافية وقصص النوادر والشطار، وبعض الحكايات الخاصة بالبطولة إلا أنها متفردة ومتميزة. " فالسيرة الشعبية العربية رغم أن ظهورها كأدب شعبي تأخر حتى العصور الإسلامية إلا أنها ربطت بين هذه المرحلة الإسلامية من حياة المنطقة، وبين ماضيها الثقافي الوافد والموروث معا. وإن كان هذا المزيج يدخلها كجزء من العطاء الشعبي الفني الإنساني بعامة، إلا أنه في نفس الوقت أعطاها خصوصية عربية مميزة، ثم أعطاها آخر الأمر القدرة على التعبير على الواقع الحضاري الإسلامي في عصوره المتعاقبة منذ انتشار الإسلام في المنطقة، وحتى بدء حركة النهضة الثقافية والعلمية والأدبية المعاصرة "[14].

كل هذه الأزمنة حوتها السيرة وعبرت عنها، مما جعلها نصا منفتحا زمانيا، بحيث يتغير باستمرار تبعا لمتطلبات البنية النصية الداخلية، وتبعا كذلك لمتطلبات المتلقي، وحاجياته. وهناك التلقي المباشر حيث عرف بعض من الناس بقدرتهم الفائقة في امتلاك ملكة الحكي والقص فكانوا يحفظون

بعض السير أو بعض متون السير، فيجتمعون بالناس في الساحات العمومية ويبدأون في رواية السيرة فيتحلق الناس حولهم للاستماع والاستمتاع، وتختلف قدرات الرواة في رد هذه السير، فمنهم المحترف الذي له دراية كبيرة بالرواية وحكاية القصص، وقد يستضاف في القبيلة حتى يقوم برواية السير التي يحفظها، وبالنسبة لسيرة بني هلال حفظها الرواة وتناقلوها وكان راويها يستضاف في مضارب القبيلة " لمدة قد تطول فتبلغ شهرا، ويفتتحون روايتها بمراسيم خاصة من بينها ذبح شاة، واجتماع سكان الحي للعشاء معا في البيت الذي سيتضيف الراوي، ويفعلون نف الشيء عند انتهائها، وتقدم الرواية في أثناء مر الجماعة التي تتكون من رجال الحي ونسائه وأطفاله، فتروى مجزأة في عدة حلقات تؤدى كلّ ليلة واحدة منها "[15].

ومما لاشك فيه أن كل راوي للسيرة الشعبية إلا وتفنن في تقديم أحداث قصته حتى يؤثر في الجمهور المتلقي للحكاية، فهو كالممثل على ركح المسرح عليه أن يؤدي دورا معينا، وعليه أن يحفظه جيدا، وأن يحن أداءه، حتى يخرج في أبهى حلة ممكنة وحتى يؤثر في الجمهور الذي يتأثر به مباشرة.

وأما زمان التلقي غير المباشر فحين تدخل السيرة المطبعة وتنتقل من طور المشافهة والإلقاء المباشر، إلى طور الكتابة والتلقي عن طريق القراءة لما هو مطبوع ومثبت على صفحات محددة الحجم والعدد.

ورغم أن السيرة ظهرت زمانيا من مدة طويلة، إلا أنها مازالت تؤثر زمانيا في القراء، حيث أن كل قراءة تعمل على ترهين الزمن الماضي، وجعل البعيد قريب، حيث عبرت السيرة على مختلف القضايا التي تشغل بال الإنسان في كل زمان ومكان، فعالجتها بكل موضوعية، فما من قارئ

– متلقي– غلا ووجد في السيرة غايته ومبتغاه، ذلك أن نواياها إنسانية عالمية، والدليل على ذلك اهتمام غير العرب بالسير الشعبية والعمل على طباعتها ونشرها والعكوف على دراستها، فلا ينكر أي دار موضوعي أن قراءة السيرة يبعث في النفوس النشوة واللذة وحبّ المعرفة. ذلك أنها خلّصت الإنسان من عبودية الآلهة المتعددة، والقدر الذي لا يرحم، وحملتهم إلى فضاء أرحب، يكون فيه الإنسان متحررا من سطوة الآلهة والقدر، يصنع مصيره بنفسه مستعينا بقوة إرادته وإرادة الله التي تصونه وتحميه، وتحمله دوما إلى برّ النجاة، أين يتحقق النصر والبطولة.

4– دلالـــة العنـــوان زمانيـــا:

العنوان وحده هو إحالة زمنية كبيرة فحين نقرأ: "تغريبـــة بني هلال" تحيلنا مباشرة على معنى التغرب، ومعناه مفارقة الوطن ولهذا المعنى دلالات زمانية كبيرة، فترك الوطن، والتطلع إلى وطن آخر غيره، هو ومضات زمانية يقترحها راوي التغريبة على المتلقي، حيث نجد أنفسنا قد أقحمنا رغما عنّا في رحلة زمانية منقسمة إلى شطرين: الماقبل وهو زمان الوطن الأول نجد، حيث لا يفوت الراوي الشارة إلى جمال هذا الوطن وما كان يحتوي عليه من خيرات ونعم، وتدو الدوائر وينقلب الزمن حين يفجع الهلاليون في وطنهم الذي أجذب وصار خرابا " اعلم يا ملك الزمان بأن الجوع قد اشتد وانقطعت المأكولات من نجد، فإن لم نتدارك الأمر في الحال انقرضت جميع بني هلال وفقدت المواشي والأموال "[16].

فنجد هذا الوطن الذي كان أمنا وسلاما، صار خرابا وتهديدا، لا ينتج إلا الفناء والموت، فكان لابد من الحركة الزمنية السريعة للبحث عن وطن بديل يحل محل الوطن الأول، يحقق الأمن والأمان للقبيلة. وهنا تأتي اللحظة

الزمنية الحاسمة وهي بداية الاغتراب الذي تعودنا أن يكون بالغصب والإرغام، هذه المرة اغتراب القبيلة وغربتها هي غاية في حدّ ذاتها لأنها الوسيلة الوحيدة للخلاص والانبعاث من جديد. فيأتي الزمن المابعد وهو الرحلة وطريقها الزمني الطويل الذي تصرف فيه الراوي فتارة يسرع العملية السردية بحيث يصير الزمن ضئيلا قصيرا يخدم السرد المتسارع، وتارة يفسح الراوي فضاءات زمنية مفتوحة بحيث يسترسل في الوصف مما يسمح له باستخدام مساحات سردية زمانية كبيرة بحسب مقتضى الأحداث التي يسوقها ويرويها راوي التغريبة.

هذا عن المعنى الأول الغربة والتغرب أما المعنى الثاني الذي تحمله كلمة التغريبة، فهو توجه قبيلة بني هلال إلى بلاد الغرب، وهو الوطن البديل الذي تقرر الرحيل إليه، هذا الرحيل الذي يعني للقبيلة الدم والقتال والمعارك والمجهول كذلك، ذلك أن طريق الرحلة طويل مكانيا، وطويل زمانيا، بحيث يحتاج إلى تعبئة نفسية كبيرة يوضحها راوي التغريبة في ومضات زمانية واضحة تلتحم مع النص في كل صور ولوحات ومشاهد غزيرة متنوعة، ذلك أن زمان الرحلة مشروط في تحققه بالمثول في زمن البدء وهو زمن ضارب بجذوره عميقا في تاريخ القبيلة، وطبيعي بعد ذلك أن تصبح العودة إلى لحظة البدء وبنائها بالكلام صورا ورموزا ثابتا من الثوابت التي تدير الحدث داخل التغريبة، ليصل بنا الراوي إلى لحظة النهاية وهي وصول القبيلة إلى الوطن الحلم، الذي يتحقق زمانيا حين يقتل الزناتي خليفة وتقتحم الجموع الهلالية أرض تونس الخضراء، هنا يبدأ الراوي في رسم أجمل لوحاته الزمانية وهو يقرر انتصار الهلالية. ومع هذا الانتصار يبدأ الراوي رحلة زمانية أخرى حين يبدأ في رد أحداث وقعت داخل " الوطن الحلم " حيث بدأت الأطماع الفردية تمزق الوحدة الجماعية، فيتقاتل أمراء بني هلال، الأمير دياب يقتل

الأمير حسن والأمير أبو زيد والجازية، ويوم بريقع ابن حسن ابن سرحان بقتل الأمير دياب، فالتقاتل يورث من الآباء إلى جيل الأبناء الذين كان همهم الوحيد هو انتظار زمن الثأر، فيتواصل التطاعن والتقاتل حتى تستقر الأمور لنصر الدين ابن الأمير دياب ابن غانم.

فتغريبة بني هلال قامت على أساس الصراع مع الزمن في البدء كان الزمن يفرّ من قبيلة بني هلال، وهي تهرب من الفناء والموت فوق أرض أصبحت أطلالا، ثم تحول الزمن إلى فضاء لتحقيق الانتصارات، وترصيع وحدة القبيلة من أجل الغاية الكبرى، فصار الزمن صديقا للهلاليين، مادام لا يقهرهم، ولا يكسرهم، على العكس من ذلك كانت أفراحهم لا تنقطع وانتصاراتهم كسرت صمت الدنيا حتى سمعها القاصي والداني، حتى وصلوا إلى تونس الخضراء حيث كان زمن النهاية وكم كانت سعيدة ومفرحة إلا أن رياح الطمع بددتها وشتتت الوحدة، وخلفت القبيلة أشتاتا وأطلالا بالية.

أما المقطع الثاني من العنوان وهو " بني هلال " فلا يخلو كذلك من ومضات زمانية واضحة المعالم، ذلك أنّ " بني هلال " قبيلة عربية عاشت حقيقة في التاريخ ولها وجود على مستوى الزمن، فمجرد أن يسمع القارئ باسم هذه القبيلة حتى يعود إلى القرن الرابع والخامس الهجري حيث عاشت هذه القبيلة، وعرفت انتصاراتها وانكساراتها.

فمما لاشك فيه أن قبيلة " بني هلال" هو اسم كبير لشخصية مهمة داخل السيرة، وهي الشخصية الرئيسية، فجل الأحداث لها علاقة وطيدة ببني هلال، حيث هي من تصنع الحدث، وهي من تفجر الومضات الزمانية التي تخدم جميعا السرد الحكائي داخل التغريبة.

فاسم القبيلة – بني هلال– هو إحالة زمنية لفترة معينة ودلالة هوية، بحيث أنها تعمل على جعل العمل السردي ذو قيمة كبيرة، حيث يرتبط

القارئ منذ اللحظة الأولى وعينه تقع على هذه التسمية- بنو هلال- بالأحداث زمانيا ويحس أنه يعايش فترة تاريخية ثابتة، لأن ما من شك أن ذكر أسماء الشخصيات هو نوع من أنـــواع الإيهام بواقعية الأحداث، وإيـــراد اسم قبيلة " بني هلال " هو محاولة من الراوي من البداية ربط سلاسل زمانية بين القارئ من جهة والمتن الحكائي من جهة أخرى.

وقد أبرز العنوان موضوع الزمان في مظاهر متعددة:

1- الزمن باعتباره تاريخا (قبيلة بني هلال وأهم الشخصيات التي ورد ذكرها مثل الأمير أبو زيد الهلالي، والجازية، والأمير دياب بن غانم، والأمير حسن الهلالي...) فكل شخصية أو اسم شخصية هو إحالة زمانية معينة تضفي على السيرة شرعيتها التاريخية.

2- الزمن الحاضر باعتباره نقطة الصراع بين القبيلة وجل الأعداء الذين وقفوا ضد هذه التغريبة، وهو بعبارة أخرى زمن الرحلة والغربة الذي استغرق مدة زمانية معتبرة، حقّق فيها الراوي جميع تدخلاته الوصفية والسردية مستعينا بقوة وسطوة الزمن الحاضر، زمن الصراع.

3- الزمن باعتباره مستقبلا، خططت له قبيلة بني هلال ووصلت إلى هدفها، عبر هذه التغريبة التي حددت مصير الشخصيات، وسطرت الأهداف فمنها ما تحقق ومنها ما بقي عالقا تائها بين عتبات الزمن الآتي.

الهوامـــش:

1 – التغريبـــة: سلسلة أيس، المؤسسة الوطنية للفنـــون المطبعية، الجزائر ص01.

2– التغريبـــة: ص22 .

3– جيرار جنيت: خطاب الحكاية ترجمة محمد معتصم، عبد الجليل الأسدي، عمر حلي، منشورات الإختلاف، طبعة 1 المغرب 1996، ص 37.

4– ع/ الحميد يونس: الهلالية في التـــاريخ، دار الكتـــب المصـــرية، ط2، القاهرة، 1995، ص 169.

5– المرجع نفسه: ص 170.

6– روزلين ليلي قريش: المقدمة.

7– سعيد يقطين: قال الراوي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء 1997 المغرب، ص218.

8– التغريبة: ص26 .

9 – التغريبة: ص178.

10– التغريبة: ص17 و18.

11– سعيد يقطين: قال الراوي، ص163.

12– فاروق خورشيد: السيرة الشعبية،المكتبة الثقافية، دار العلم، ط1 1964، ص 22.

13- المرجع نفسه، ص 23.

14- فاروق خورشيد: السيرة الشعبية، ص 54.

15– عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986 ، ص 101.

16– التغريبة: ص01.